الفلسطينية بعيون صهيونية

خلال الاعتصام أثناء عرض الفيلم في بيروت (أرشيف ــ مروان طحطح)

السوري القومي الاجتماعي والتنظيم السرّي لوديع حدّاد كانوا على الغالب ينبذون الأوغاد والزعران من صفوفهم. أجزم بأنّ الرفيق «زهير» في القيادة العسكريّة لمنظمة العمل الشيوعي كان يلفظ هؤلاء من دون تردّد، ولا يقبلهم في صفوفه أبداً، وكانت تلك الحال في تنظيم حدّاد. لم يكن مقاتلو الأحزاب العقائديّة زعراناً على شاكلة يوسف بزّي («الصحافي» في نشرة آل الحريري اليوميّة) كما يصف هو نفسَه في كتابه البشع «نظر إليّ ياسر عرفات وابتسم».

وكالعادة في أفلام كهذه عن الشرق الأوسط، وخصوصاً تلك التي تتلوّث بأيدٍ إعدادية وتجهيزية أميركيّة صهيونيّة، يزخر الفيلم بالأخطاء والمغالطات. فالفيلم يظنّ أنّ صدّام حسين تسلّم سلطة الرئاسة من أحمد حسن البكر في أواسط السبعينيات. يخلط مراراً وتكراراً بين الجبهة الشعبيّة لتحرير فلسطين والتنظيم السرّي الذي أنشأه حدّاد خارج إطار الجبهة. كما أنّ الفيلم لم يكترث للنقاش الطويل والمبكّر الذي دار في قيادة الجبهة الشعبيّة (منذ، إن لم يكن قبل، اجتماع اللجنة المركزيّة في 1971)، أي أنّ العنف، خصوصاً بعيداً عن ساحة الصراع الأساسيّة، لم يكن أمراً عابراً عن القادة والثوّار الفلسطينيّين. وخلط الفيلم كالعادة بين الجبهة الشعبيّة (فرع العمليّات الخارجيّة الذي انشقّ تحت رئاسة حدّاد) ومنظمة «أيلول الأسود». ولم يفهم المُخرج طريقة العمل والتجنيد لوديع حدّاد: حدّثني هذا الصيف واحد من البارزين في تنظيم وديع حدّاد عن انتقائه للمنفّذين. كان يخطّط لعمليّة ويرسل إلى بيروت أوصافاً للمرشحين (كأن يقول، أريد مقاتلاً متمرّساً ابن مخيّم، قصير القامة وأشقر الشعر، الخ). لم يعلم المخرج أنّ أنيس نقاش لم يلتق وديع حدّاد قط، وأنّه كان «مبعوثاً» من أبو جهاد لمعاينة تنظيم حدّاد من الداخل.

كذلك فإنّ الفيلم يخلط بين علي العيساوي (الذي لا علاقة له بـ«كارلوس») وأفعاله وبين شقيقه سليم. ليس هناك من دليل على أنّ «كارلوس» كان متورّطاً في محاولة اغتيال عاصم الجندي، باعتراف الجندي نفسه الذي جزم ببراءة «كارلوس» من الاغتيال. سها عن الفيلم أن يذكر أنّ السلطات اللبنانيّة المتواطئة (قبل وحتى اتفاق الطائف) مع أجهزة الاستخبارات الأجنبيّة كانت تسمح لـ«مسؤول أمني» فرنسي خبير في شؤون «مكافحة الإرهاب» بالإقامة في لبنان للتجسّس والتخريب على منظمات الثورة الفلسطينيّة. وتصوير الشخصيّات العربيّة لا علاقة له بالواقع. من التقى أنيس نقّاش يعرف أنّ لا قربى بينه وبين الشاب العصبي المتهوّر في الفيلم. شخصيّات الفيلم مبنيّة على التصوير النمطي التقليدي

> لماذا التركيز على الاستخبارات السورية مع أنّ العراقية والليبية أقرب إلى كارلوس؟

لثوّار فلسطين. من الأكيد أنّ أساياس لم يلتق عن كثب أيّاً من الذين عملوا مع وديع حدّاد، ولم يحاول التعرّف على حقيقة شخصيّة وديع حدّاد. ولم يفهم المخرج كيف طرد حدّاد من دون تردّد «كارلوس» بعدما خالف أوامر عمليّة فيينا. ونظرة حدّاد إلى «كارلوس» لم تكن على الصورة التي أدرجها الفيلم. عندما اغتيل محمد بوضياف في فرنسا، لم يكن اسم «كارلوس» مطروحاً كخليفة له إلا في مخيّلة «كارلوس» وحده. (وقد غالط «كارلوس» في رسالة لـ«الأخبار» الوقائع في الفيلم في أكثر من نقطة).

لكن هناك ما هو أيضاً عنصري في الفيلم: الثوار من أميركا اللاتينيّة بدوا (وبدون) مبدئيّين ومبدئيّات ومندفعات بمنطلقات محض سياسيّة. والأمر نفسه ينطبق على العناصر الألمانيّة (وكم بالغ الفيلم في دورها ربّما بسبب تمويل ألماني للفيلم). أما الثوّار العرب، فهم زعران فقط يهتمّون بالمال وبتنفيذ أوامر استخبارات عربيّة.

لكن هناك ما هو مريب في الفيلم: هناك نفحة 14 آذاريّة في السرد. يبدو أنّ المُخرج جالس يساريّين سابقين في حاشية الحريري لأنّ الفيلم ركز على علاقة «كارلوس» بالاستخبارات السوريّة، فيما تجاهل علاقات أخرى له، وأغفل الرعاية الليبيّة. من الأكيد أنّ الفيلم أراد التركيز على الاستخبارات السوريّة أكثر من غيرها، مع أنّ الاستخبارات الليبيّة والعراقيّة كانت أقرب إلى «كارلوس» وإلى وديع حدّاد. ثمّ، لماذا لم يذكر الفيلم كلمة واحدة عن علاقة «كارلوس» بالاستخبارات السعوديّة وقيامه بتنفيذ مهمّات قتل لحسابهم؟ خالد خضر آغا، وكان ذا صلة وثيقة بالملك فيصل وبالاستخبارات السعوديّة، أشار لي إلى كرسي في منزله في بيروت وقال: على هذا الكرسي جلس «كارلوس» وجرع قناني «جوني ووكر» وهو يتباحث في أمر خدمة الاستخبارات السعوديّة. وقد نفّذ «كارلوس»، بناءً على شهادة خضر آغا، عمليّة اغتيال مُعارض سعودي وتلقّى تحويلاً ماليّاً في حساب باسم السيدة «توتو» في رومانيا. فات كلّ ذلك رواية الفيلم.

ولماذا هذا التركيز في الفيلم على صدّام حسين حتّى عندما لم يكن معروفاً؟ أليس ذلك من أجل التأثير على المشاهد المُعاصر المُتأثّر بما يعرف اليوم عن طغيانه؟ ولماذا لطّف المُخرج كثيراً من تصوير استخبارات أوروبا الشرقيّة، وخفّف من حميميّة علاقتها بـ«كارلوس»؟ يذكر قيادي بارز في الجبهة الشعبيّة كيف اشتكى له حدّاد في السبعينيات من سيطرة الـ«كي جي بي» على تنظيمه. ولماذا فات المُخرج أن يغطي النقاشات الطويلة التي كانت تدور حتى في وسط تنظيم وديع حدّاد عن مسألة ضرورة تجنّب إلحاق الأذى بالمدنيّين (دون نفي حصول إلحاق ضرر بالمدنيّين والمدنيّات جراء أعمال أشرف عليها وديع حدّاد، وقد تنبّهت الجبهة الشعبيّة لتحرير فلسطين لهذه المسألة عند النقاش الطويل الذي أدّى إلى قطع العلاقة التنظيميّة بين حدّاد والراحل الكبير جورج حبش). هذا لا ينفي أنّ الأعمال «الخارجية» ساعدت على وضع اسم فلسطين على الخريطة العالمية.

وهناك مسألة «ميشال مكربل». ليس من الهيّن أن تدرك أنّ السلطات اللبنانيّة قبضت على مكربل وسلمته إلى السلطات الفرنسيّة بعد تعذيبه. لم يكن يقوم بأي نشاط في لبنان: كان كلّ نشاطه منصبّاً في أوروبا. لكن السلطات اللبنانيّة حتى عهد أمين الجميّل كانت سلطات عدوّة لكل المصالح العربيّة، وكانت أجهزة أمنها وجيشها واستخباراتها مرتهنة بالكامل لاستخبارات أجنبيّة مُتعاونة مع إسرائيل. السلطات اللبنانيّة كانت ترصد كل من كان ينشط ضد إسرائيل حتى لو خارج لبنان. إنّ عمل جول بستاني (أو جوني عبده بعده) يجب أن يصبح معروفاً للناس في لبنان، وفي خارج لبنان. كان «كارلوس» مُصرّاً على أنّ مكربل مشبوه، وكان يروّج لذلك أينما حلّ. كما أنّ مراجع إسرائيليّة أكدت شبهات «كارلوس» عندما تحدّثت عن دور لمكربل في الوصول إلى بوديّة. الفيلم يصوّر مكربل مغلوباً على أمره، لكنّ الحقيقة ليست واضحة هنا. لم يكن من مصلحة الجبهة الشعبيّة الاعتراف بصوابيّة شكوك «كارلوس» في هذا الصدد.

تبقى مسألة تقويم عمل «كارلوس». لا شكّ أنّ الثورة جذبت متطفّلين ومغامرين ومجرمين ومرتزقة ومتهوّرين، كما أنّها جذبت ثوّاراً حقيقيّين (وحقيقيّات). آخر أعمال «كارلوس» كانت في بيان أخير له حيّا فيه بن لادن وأسبغ عليه صفات الثورة. من قرّر أنّ «كارلوس» هذا هو الذي يُصدر الأحكام في ما يتعلّق بالعمل الثوري العربي؟ ليس حتمياً علينا أن نؤيّد مَن يؤيّد قضايانا عندما يسيء إليها.

هذا الفيلم يلخّص الدعاية الصهيونيّة. يجب التحقّق من كلّ سيناريو قبل مشاركة العرب فيه. أذكر في أوّل سنة دراسة جامعيّة في واشنطن أنّ مخرجاً كان يُفتّش عن عرب شبّان للظهور في فيلم «بروتوكول» لغولدي هون (وكانت المكافأة اليوميّة نحو مئة دولار لمن يظهر في الفيلم). أتى للقاء الـ«كاستنغ» عدد كبير من الشبّان العرب في المدينة وواجهوا الفريق المعدّ. وتم الاتصال بعدد من الذين اختيروا. اتصلت بي مديرة الـ«كاستنغ» لتخبرني أنّني بين مَن اختيروا. قلت لها إنّني لن أقبل قبل أن أقرأ السيناريو لأتأكّد من خلوّه من الإساءة للعرب. ضحكت وقالت لي: وهل تظنّ أنك ممثّل في الفيلم؟ نحن نريدكم فقط «كومبارس». أصررت على موقفي، فضحكت وانتهت المكالمة. المغرب بات خبيراً وعريقاً في استضافة أكثر الأفلام معاداة للعرب والإسلام، على نسق «إنديانا جونز» وغيره. لبنان، كالعادة، لا علاقة له بشؤون الحساسيّة للذات العربيّة. على العكس، لعل البعض في لبنان زها بالتعاون الذي بدا في الفيلم بين أجهزة الشرطة في لبنان ومصالح إسرائيل (في السبعينيات من العقد الماضي). لكنّه فيلم، فقط. أما الرفض العربي لوجود إسرائيل، فذاك حقيقة عنيدة. سجّل ذلك يا أساياس.

* أستاذ العلوم السياسيّة في جامعة كاليفورنيا (موقعه على الإنترنت: angryarab.blogspot.com)